الباب الثاني

نهج حواري في التعامل مع اكتساب اللغة الثانية

• المبادئ الأساس لنظرية فيجوتسكي الثقافية الاجتماعية • نظرية تصيير التغاير اللغوي حوارياً لدى باختين • نظرية فيجوتسكي الثقافية–الاجتماعية وتعلم اللغة الثانية • بناء نموذج جديد لاكتساب اللغة الثانية

obeikandl.com

الفصل السادس

المبادئ الأساس لنظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية

Fundamental Principles of Vygotsky's Sociocultural Theroy

يتضمن هذا الفصل وصفاً للمبادئ الأساسية لنظرية ليف فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية (SCT) إضافة إلى تقديم بعض المعلومات الخاصة بالسيرة الذاتية لفيجوتسكي دعماً لرؤيته التي تنص على أننا جميعاً نتاج البيئات الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي نتواجد بها ونتعرض لها خلال سنين حياتنا. وكما هو المتوقع من إنسان عبقري، فإن بعضاً من أفكاره سبقت زمانه ومكانه فيما تعكس أفكاره الأخرى وبشكل واضح الفترة الزمنية التي عاش فيها إذ إن هذه الأفكار لها جذورها في المناخ السياسي والاجتماعي لتلك الفترة.

سيرة فيجوتسكي الذاتية

ولد ليف فيجوتسكي في الخامس من نوفمبر عام ١٨٩٦م في أورشا وهي مدينة صغيرة بالقرب من مينسك في بيلاروسيا، وبعد سنه من ولادته انتقلت عائلته إلى قوميل حيث عمل والده كمسؤول قسم في أحد البنوك هناك. وفي هذه المدينة ذهب فيجوتسكي إلى قاعة تدريب يهودية خاصة وتخرج منها بميدالية ذهبية

عام ١٩١٣. وفي العام نفسه دخل جامعة موسكو حيث درس القانون فيها. كما أنه قد ذهب إلى جامعة People's Chanyavskii وهي جامعة غير رسمية يقوم بالتدريس فيها أعضاء هيئة التدريس المطرودين من جامعة موسكو بسبب تورطهم في الحركة المناهضة لحكم القياصرة الروس. وفي هذه الجامعة استمرت رغبته في دراسة الفلسفة، والأدب، والمسرح ، وعلم النفس. وقد عاد فيجوتسكي إلى قوميل بعد حصوله على الشهادة في القانون من جامعة موسكو. ونتيجة للمتغيرات السياسية الهامة التي كانت تضطرم بها روسيا في ذلك الوقت، لم يكن فيجوتسكي قادراً على ممارسة المحاماة. فقد أدى إبعاد حكومة القياصرة الروس وإنشاء دولة الاتحاد السوفيتي الجديدة إلى فقدان شهادة المحاماة التي حصل عليها من أي قيمة. وبدلاً من ممارسة المحاماة، فقد قام فيجوتسكي بتدريس الأدب وعلم النفس في مدارس مختلفة بما في ذلك كلية المعلمين بقوميل Gomel's Teacher College حيث قام بأولى تجاربه النفسية والتي أصبحت فيما بعد الأساس لمبادئ علم النفس- التربوي التعليمي.

وأثناء إقامته في قوميل تولى فيجوتسكي مناصب متعددة جعلت منه واحداً من أكثر الشخصيات الثقافية شهرة. فقد كان يقدم محاضرات عن مواضيع متعلقة بالأدب، والفن، والتاريخ، والعلوم، والمسرح وقد كان فيجوتسكي طوال حياته مهتماً بالمسرح حتى إنه كتب بحثاً عن علم النفس الخاص بالممثل. وقد كان لتنوع اهتماماته أثراً بالغ الأهمية في تطويره النظرية الموحدة الخاصة بالوظائف الذهنية الإنسانية الأعلى رتبة.

أمضى فيجوتسكي سبع سنوات في قوميل في أعقاب عودته من موسكو. ولابد أن اندلاع الثورة الروسية في العام ١٩١٧م وما أعقبها من تغيرات سياسية واقتصادية لاحقه كان لها تأثيرها البالغ على حياته كما هو الحال مع الملايين من

الروس الذين كابدوا وتحملوا شرور نظام ستالين التي تعجز الكلمات عن وصفها والتي تضمنت وفاة ثلاثين مليون إنسان بسبب التعذيب والتجويع والإبعاد إلى معسكرات الاعتقال الجماعي في سيبيريا.

وليس هناك الكثير من المعلومات بخصوص انتماء فيجوتسكي السياسي في ذلك الوقت؛ ويذهب البعض إلى القول بأنه كان منتقداً للحزب البلشفي على الرغم من عدم إمكانية إثبات هذا الادعاء. فلو افترضنا أنه كان معارضاً لذلك النظام الاستبدادي الناشئ، فلابد أنه قد احتفظ بمواقفه السياسية كواحدة من أسراره، إذ إنه بكل بساطة لم يكن بإمكانه البقاء سالماً على قيد الحياة لو أنه حاول انتقاد النظام السوفيتي الجديد.

وقد كان العام ١٩٢٤ عاماً مهماً جداً بالنسبة له على المستويين الشخصي والمهني فقد تزوج في ذلك العام كما أنه قدم محاضرة في المؤتمر النفسي العصبي الروسي الثاني في مدينة لينغراد. وقد كانت هذه المحاضرة على مستوى عال من الجودة وهي التي جعلت مدير المعهد النفسي في موسكو يدعوه إلى الانضمام إلى أعضاء المعهد إيذاناً ببداية المرحلة الثانية من مساره العلمي والعملي. ومن خلال قبوله لهذا المنصب، يكون فيجوتسكي قد حوّل دائرة اهتمامه من الأدب والفنون والمسرح باتجاه مشاكل علم النفس ومبادئ التربية والتعليم.

وقد تميزت الفترة الزمنية ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٤ (سنه وفاته) بأنها كانت فترة مثمرة جداً فقد ألّف خلال تلك الفترة أكثر كتبه شهرة وهو (العقل في المجتمع) وقد اشترك فيجوتسكي خلال عمله في المعهد في تطوير نوع جديد من علم النفس القائم على الفلسفة الماركسية. وتدّعي "لوريا"، وهي واحدة من زميلاته والمهتمين بفلسفته، بأنه كان من المُنظّرين الماركسيين البارزين. ويدعم هذا الادعاء ما ذكره

ويرتش (Wertsch, 1985a) وازدهار مساره العملي أثناء فترة تكوين الاتحاد السوفيتي. وكما أشرتُ من قبل، لم يكن بإمكانه أن يحصد كل هذا النجاح لو أنه عارض ولو لمرة واحدة النظام السوفيتي الرسمي، وحقيقة أنه كان يعمل على علم نفس ماركسي جديد لاستخدامه من قبل النظام للتحكم بالجماهير قد أسهمت كثيراً في إنقاذ حياته.

وبالإضافة إلى انغماسه في الأبحاث والتأليف، فقد تنقل فيجوتسكي خلال السنوات العشر الأخيرة كثيراً في أرجاء الاتحاد السوفيتي لتقديم العديد من المحاضرات في مختلف المعاهد الأكاديمية، وتأسيس مختبرات الأبحاث، وتدريب المدرسين والمختصين في علم النفس في أجزاء مختلفة من الاتحاد السوفيتي. وقد تم نقل بعض من أنشطته البحثية إلى مدينة خاركوف في أوكرانيا حيث قام أحد متابعيه وطلابه بتطوير مدرسة خاصة بعلم النفس هي "نظرية النشاط".

وقد توفي فيجوتسكي عام ١٩٣٤م بسبب الدرن وقد تم منع مؤلفاته بعد وفاته لأكثر من عشرين عاماً، غير أن حركة نشر أعماله ومؤلفاته عادت إلى الظهور في أعقاب وفاة ستالين. وقد ترك فيجوتسكي العديد من المقالات والكتب والكثير من المخطوطات التي لم يسبق نشرها. كما أنه ترك وراءه العديد من الطلاب والمعاونين الذين استمروا في ترويج أفكاره.

وتحظى نظرية فيجوتسكي الخاصة بآلية عمل العقل الإنساني الأعلى مرتبة في وقتنا الحاضر بشعبية كبيرة في الغرب إذ يجد العديد من الباحثين في مجالات علم النفس والتربية واكتساب اللغة الثانية في أفكاره العديد من الجوانب الجذابة والمفيدة؛ وهذا الاهتمام المتزايد بأعماله في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي ما هو إلا أفضل دليل على عبقرية هذا الرجل.

نظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية

يقدم هذا الجزء وصفاً للمبادئ الأساسية التي ترتكز عليها النظرية الثقافية – الاجتماعية، فيما يتم الحديث عن العلاقة بين النظرية الثقافية – الاجتماعية (SCT) ونظرية النشاط في نهاية هذا الفصل.

وبالإمكان تلخيص نظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية من خلال ثلاثة مبادئ رئيسة:

١- التحليل التطوري للعمليات الذهنية.

٢- الأصل الاجتماعي للعمليات الذهنية الإنسانية.

٣- دور أنظمة الإشارة في تطور الوظائف الذهنية الإنسانية الأعلى مرتبة.

(جونسون – ويرتش) (Wertsch, 1990, 1985; John son, 2001).

لاحظ هنا أنه على الرغم من إمكانية تحليل ودراسة كل واحد من هذه المبادئ الثلاثة على حده، فإنها جميعاً مترابطة بشكل كبير، أي أن استيعاب واحدٍ منها يتطلب فهماً كاملاً للمبدأين الآخرين وكيفية تفاعل كل منهما مع الآخر.

ويشير المبدأ الأول إلى نوع التحليل (أي الطريقة العلمية) الذي نادى فيجوتسكي باستخدامه في دراسة وفهم وتحليل الوظائف النفسية الإنسانية، وقد دعا فيجوتسكي إلى البحث عن طريقة جديدة "لأن البحث عن الطريقة يصبح واحداً من أكثر المشاكل أهمية في مشروع استيعاب وفهم الأشكال الإنسانية الفريدة من نوعها للنشاط النفسي بأكمله" (١٩٧٨: ٦٥ . و"بشكل أساسي، فإن أي منهج جديد للتعامل مع إشكالية علمية يؤدي بشكل حتمي إلى ظهور طرق بحث وتحليل جديدة" (٥٨). وهكذا فقد لاحظ فيجوتسكي علاقة عميقة بين الطريقة المُستعملة في تحليل الإشكال العلمي وفهمنا واستيعابنا وتحليلنا للإشكالية نفسها.

وقد انتقد فيجوتسكي مختلف مدارس علم النفس المعروفة في وقته، ومنها مدرسة بياجيه على وجه التحديد. وقد اعترض فيجوتسكي على كل من الطريقتين الاستبطانية والموضوعية المستخدمتين في ذلك النوع التجريبي من علم النفس لدراسة التطور الذهني الإنساني الأعلى مرتبة. وبسبب عدم رضاه عن طرق التحليل الموجودة في وقته آنذاك، قام فيجوتسكي بتطوير طريقة مختلفة تماماً تقوم على فلسفة "إنجيلز" الجدلية والتي تؤكد بدورها على أهمية التغيير باعتباره العامل الأساسي في التطور الاجتماعي الإنساني. وبحسب إنجيلز، يتم إحداث هذا التغيير عبر التنازع والاختلاف المستمر بين قوى متعاكسة مثل الطبيعة التي تؤثر على البشر والبشر الذين يؤثرون في الطبيعة. وأثناء عملية التفاعل والشد بين القوى المتعاكسة (المتضادة)، تتطور ظروف وأوضاع جديدة للوجود الاجتماعي الإنساني. وقد وجد فيجوتسكي أنه بالإمكان تطبيق أفكار إنجيلز على طريقته الجديدة؛ فتلك الأفكار تمثل الأساس الذي تقوم عليه طريقته الجديدة هذه، ويقول فيجوتسكي: "إن المنهج الجدلي، مع اعترافه بتأثير الطبيعة في الإنسان، يؤكد على أن الإنسان بدوره يؤثر على الطبيعة ويُوجِدُ من خلال تغييراته للطبيعة ظروفاً وأوضاعاً طبيعية جديدة لوجوده (Engels, Dialects in Nature). وهذا الرأي هو الأساس لمنهجنا في دراسة فهم الوظائف النفسية الإنسانية الأعلى مرتبة كما أنه يمثل أساس الطرق الحديثة للتجريب والتحليل التي ننادي بها" (١٩٧٨: ٦٠-٦١). ويرى فيجوتسكي "أننا نحتاج للتركيز لا على *منتج* التطور بل على *العملية* نفسها التي يتم من خلالها إيجاد صيغ وأشكال أعلى رتبة" (٦٤).

وتتطلب طريقة فيجوتسكي الجدلية دراسة جميع النقاط الرئيسة في تاريخ تطور العقل البشري وهي تتطلب دراسة هذه العملية "في كل مراحلها وتغيراتها —

من النشأة حتى الموت" (٦٥)، ولذلك السبب تُسمى بالطريقة التاريخية، وتدرس هذه الطريقة العمليات الذهنية الأعلى رتبة على عدة مستويات حيث تحكم هذه العمليات مبادئها التفسيرية. ونتيجة لتداخل وترابط كل هذه المستويات، لا يمكن تفسير تطور الوظائف العقلية الأعلى مرتبة بشكل كامل من خلال المبادئ والقوانين التي تحكم مستوىً واحداً فقط. وتضع طريقة فيجوتسكي هذه يدها على جوهر التطور العقلي البشري على جميع المستويات في وقت واحد.

وقد تعرف فيجوتسكي على أربعة من هذه المستويات ووصفها: تطور السلالات، والتاريخ الثقافي - الاجتماعي، وتاريخ تطور الكائنات، والتطور الجزيئي (ويرتش). والمقصود بالمستوى الأول المتمثل بعلم تطور السلالات التطور *الارتقائي* للبشر. وقد اتفق فيجوتسكي مع ما يراه ماركس من أن القدرة على استخدام الأدوات، إضافة إلى الفروق الأحيائية الواضحة في تطور المخ، تُميِّز البشر عن القردة الأعلى رتبة. وعلى الرغم من اعتراف فيجوتسكي بأهمية علم تطور السلالات في تطور الوظائف الذهنية الأعلى رتبة، فإنه اعتبر أن المستويات الأخرى أكثر أهمية في هذا النوع من التطور؛ وقد انتمى فيجوتسكي إلى الرأي الذي عكسته مقولة ليونتيف الذي كان واحداً من طلابه وأتباعه أيضاً، إذ يقول ليونتيف: "يتعلم الإنسان من الأخطاء – وبشكل أكبر أيضاً من النجاحات – وكذلك من الأفراد الآخرين، فيما يستطيع كل جيل من أجيال الحيوان التعلم من نفسه.....إنها البشرية ككل - وليس الإنسان لوحده – التي تستطيع التفاعل مع البيئة الأحيائية (البيولوجية)، ولذلك فإن قوانين الارتقاء مثل قانون الانتقاء الاجتماعي، تصبح من دون قيمة ضمن المجتمع الإنساني" (ليونتيف، ١٩٧٠: ١٢٤) (Leont'ev 1970, 124).

وعلى الرغم من أن فيجوتسكي لم يكن يؤمن باستمرارية تطور الوظائف الذهنية الأعلى مرتبة بين مستويي تطور السلالات البشرية والتاريخ الثقافي الاجتماعي إلا أنه قد رأى استمرارية العمليات فيما بين التاريخ الثقافي الاجتماعي وتاريخ تطور الكائنات. وبالنسبة له، فإن العمليات التي تحدث في هذين المستويين متطابقة لأن القدرة على استعمال الأدوات وأنظمة الإشارة من قبل المجتمع بأكمله (النطاق الثقافي الاجتماعي) تؤثر على تاريخ تطور الكائنات – المستوى الفردي للتطور العقلي البشري.

وكان فيجوتسكي ينظر إلى المستوى الثالث – تاريخ تطور الكائنات – من خلال مؤثرين اثنين هما الطبيعي (الأحيائي) والثقافي؛ والأول منهما (الطبيعي) مسؤول عن الوظائف العقلية الأقل رتبة مثل الاستقبال والانتباه اللاإرادي، فيما المؤثر الثقافي مسؤول عن الوظائف العقلية الأعلى رتبة كالانتباه الإرادي والتخطيط والمراقبة والتفكير العقلاني والتعلم. وهذان المؤثران وعلى الرغم من صعوبة الفصل فيما بينهما من وجهة نظر تجريبية يعملان عموماً بشكل مستقل وتحكم عملهما مجاميع مختلفة من القواعد؛ وما يميز هذان المؤثران عن بعضهما هو درجة ونوع التنظيم. فالطبيعة تحكم الوظائف الأولية الأقل رتبة فيما الوظائف الأعلى رتبة محكومة بشكل ذاتي، ويقول فيجوتسكي في هذا الصدد: "إن ما يميز الوظائف الأولية بشكل أساسي هو أنها محكومة بشكل كلي ومباشر بمحفز مصدره البيئة، أما الوظائف الأعلى رتبة فيمثل المحفز الذاتي صفتها المميزة، أي إيجاد واستخدام المحفزات الاصطناعية التي تتحول في الحال إلى مُسبِّبات للسلوك" (٣٩-١٩٧٨).

أما المستوى الرابع في طريقة فيجوتسكي الجديدة فهو التطور الجزيئي؛ ويرى فيجوتسكي أنه يتعين دراسة كيفية أداء الجزء العقلي الإنساني الأعلى رتبة لوظائفه لا

بطريقة طولية فحسب بل وخلال فترة زمنية قصيرة جداً مثل الفترة الزمنية التي تستغرقها الاستجابات الأولية للفرد لمهمة مهمة خلال تجربة ما. ومثل هذه الملاحظات والتي تميز حقل التطور الجزيئي تسمح للباحث بأن "يفهم العملية" (١٩٧٨ : ٦٨). وهذه الملاحظات تعطينا المجال كي نقوم بدراسة العمليات العقلية الإنسانية التي يتم خلالها بناء الروابط العقلية الأولية والأكثر أهمية على الإطلاق. وينتقد فيجوتسكي دراسات البحث العلمي التي تميل للتقليل من قيمة هذه الملاحظات والتي توجه الكثير من الانتباه صوب سلوك حولّهُ الشخص إلى "أحفورة".

وبالخلاصة فإن المبدأ الأول لنظرية فيجوتسكي الثقافية - الاجتماعية، أي طريقته الوراثية في تحليل الوظائف العقلية الإنسانية تنص على أنه عبر التحليل المستفيض للوظائف العقلية الإنسانية عند جميع المستويات الأربعة المتمثلة في تطور السلالات، التاريخ الثقافي - الاجتماعي، تاريخ تطور الكائنات والتطور الجزيئي وبشكل متزامن يمكن لنا أن نحصل على فهم واستيعاب كامل ودقيق لكيفية أداء العقل البشري لوظائفه. هنا ينبغي ملاحظة أنه على الرغم من أن فيجوتسكي قد أشار إلى أربعة مستويات، فإن غالبية بحثه ودراسته قد جرى تنفيذها عند مستوى تاريخ تطور الكائنات — أي المستوى الفردي لتطور العقل البشري.

المنشأ الثقافي-الاجتماعي للوظائف العقلية الإنسانية الأعلى رتبة

ينص المبدأ الثاني لنظرية فيجوتسكي الثقافية - الاجتماعية على أن الوظائف العقلية الأعلى رتبة كالتفكير المنطقي والتعلم تنشأ في النشاط الاجتماعي. وهذا الادعاء يعكسه بوضوح *القانون الوراثي العام للتطور الثقافي* الذي ينص على أن "أية وظيفة في تطور الطفل الاجتماعي تظهر مرتين أو على مستويين اثنين فهي تظهر أولاً

على المستوى الاجتماعي ومن ثم على المستوى النفسي. وهي تظهر أولاً بين الأفراد على أنها صنف اجتماعي. وتظهر من ثم داخل الطفل على أنها صنف فردي داخل نفسية الطفل. وهذا أمر حقيقي بشكل مماثل فيما يخص الانتباه الإرادي والذاكرة المنطقية وتكوين المفاهيم وتطوير الإرادة. ويمكننا اعتبار هذه الرؤية لهذا الأمر على أنها قانون بكل ما تعنيه كلمة قانون، غير أنه من المسلم به أن التذويت يعيد تشكيل العملية نفسها ويغير تركيبها ووظائفها. إن العلاقات الاجتماعية أو العلاقات فيما بين الناس تؤكد وبشكل وراثي على أهمية جميع الوظائف الأعلى رتبة وعلاقات هذه الوظائف" (فيجوتسكي، ١٩٨١ : ١٦٤) (Vygotsky's, 1981, 163). وهكذا فإنه وبحسب القانون الوراثي العام للتطور الثقافي، تنشأ الوظائف العقلية الأعلى رتبة على مستوى المجتمع فيما بين أفراده (أي ذلك المستوى الاجتماعي أو التاريخي أو المؤسسي) – أي على مستوى خارجي بالنسبة للفرد. وخلال مشاركة الفرد في العديد من الأنشطة الاجتماعية على المستوى الخارجي، فإنه يُذوت أنماط هذه الأنشطة الاجتماعية. وعملية تذويت أنماط الأنشطة الاجتماعية عملية معقدة وتفيض بالحيوية. وبالإمكان وصفها على أنها عملية انتقال تدريجية من المرحلة الابتدائية الأولية والتي تتحكم فيها البيئة بشكل وحيد بالفرد إلى مرحلة التنظيم من قبل الآخر حيث تعتمد عملية أداء العقل لوظائفه على مساعدة الأشخاص البالغين حول هذا الفرد انتهاءً بمرحلة التنظيم الذاتي حيث يتحكم الفرد بعملياته العقلية الأعلى رتبة.

وعملية الانتقال من المرحلة المُجتمعية (على مستوى المجتمع فيما بين أفراده) إلى المرحلة الفردية (داخل الطفل)، تعتمد على الوظيفة التوسيطية لأنظمة الإشارة حيث تلعب اللغة دوراً بالغ الأهمية. وستكون هناك عودة للحديث عن دور اللغة في

تطور الوظائف العقلية الإنسانية الأعلى رتبة في ذلك الجزء المتعلق بالمبدأ الثالث لنظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية.

إن تأكيد فيجوتسكي على أن الوظائف العقلية الأعلى رتبة تنشأ على المستوى الاجتماعي كان له تأثيره الكبير فقد قلّل من قيمة ادعاء بياجيه في أن الوظائف العقلية الأعلى رتبة تنشأ وتتكرس بشكل مستقل عن السياق الاجتماعي ومن دون أن يكون للعمليات الخارجية أي تأثير عليها. وقد استخدم فيجوتسكي مصطلح "العمليات الخارجية" ليقصد به التعلم المتوفر للطفل في العديد من الأوضاع الاجتماعية والثقافية والمؤسسية. وقد اعتبر فيجوتسكي أن مسار أو نمط التطور الطبيعي أو الأحيائي "مادة خام" للمؤثرات الثقافية – الاجتماعية، مادة خام يتم تحويلها وتغيير شكلها من خلال التعلم المتوفر للطفل على المستوى الثقافي – الاجتماعي. وهكذا فإن المستوى الثقافي – الاجتماعي يقدم الأساس الضروري لتطور الوظائف العقلية الأعلى رتبة فهو يقوم بتحويل الوظائف الأقل رتبة إلى وظائف أعلى رتبة. ويرى فيجوتسكي أن الوظائف الأعلى رتبة لا تنشأ على المستوى الأحيائي بل تنشأ على المستوى الاجتماعي.

وتتطور الوظائف الأعلى رتبة من خلال عملية تذويت العديد من الأنماط الملاحظة على المستوى الاجتماعي. وعلى الرغم من نشأة هذا التذويت عند المستوى الخارجي فإنه لا يقدم صورة طبق الأصل للمستوى الداخلي لأن التذويت، كما يشير فيجوتسكي " يُحدث تغييراً في العملية نفسها ويغير تركيبها ووظائفها" (المصدر السابق)؛ أي أن العمليات الداخلية تعكس العمليات الخارجية، غير أن هذين النوعين من العمليات لا يتطابقان لأن إحداث التغيير في العمليات الخارجية يتم أثناء تخصيصها. وعلى الرغم من عدم تطابق هذين النوعين من العمليات – أي

العمليات التي تحدث على المستوى المُجتمعي (على مستوى المجتمع فيما بين أفراده) والعمليات التي تحدث على المستوى الفردي (داخل الطفل)– فإنهما لا يزالان مرتبطين ببعضهما بشكل كبير. ولذلك فإن هناك حاجة لدراسة أصول العمليات العقلية الأعلى رتبة – السياقات الاجتماعية التي تعرض لها الفرد خلال حياته– إذا ما كنا نرغب في فهم واستيعاب هذا النوع من العمليات.

وبهدف تفسير العلاقة فيما بين المستوى المُجتمعي (على مستوى المجتمع) والمستوى الفردي، قام فيجوتسكي بتطوير مفهوم Zone of Proximal Development (منطقة النمو المُقارب) والذي يُعرِّفه على أنه "المسافة بين مستوى التطور الفعلي كما هو محدد عبر حل المشاكل المستقل ومستوى التطور الممكن كما هو محدد عبر حل المشاكل الذي يحدث بتوجيه من قبل أحد الأشخاص البالغين أو بالتعاون مع زملاء أكثر قدرة" (1978, 86). وهكذا فإنه يفرِّق وبشكل واضح بين مستويي تطور أساسيين هما الفعلي والممكن. ويُمثِّل المستوى الفعلي من التطور قدرة الأطفال على القيام بأنشطة عقلية دون الحاجة إلى مساعدة من زميل أكثر قدرة. هذه الاستقلالية تدل على أن الوظائف المرتبطة بالأنشطة التي تم القيام بها بشكل مستقل قد تم تثبيتها (أي أنها أصبحت مستقرة) من دون الحاجة إلى أي تدخل من أي شخص آخر. ويدل مستوى النمو الممكن على أن وظائف عقلية معينة لم يتم تثبيتها بعد ولذلك تبرز الحاجة إلى وجود تدخل ما (المساعدة من قبل زميل أكثر قدرة أو مدرب). ويمكن تقديم الفرق بين هذين المستويين بصورة رياضية على النحو التالي:

مستوى المُمكن ناقصاً مستوى الواقع يساوي منطقة النمو المقارب. كما يمكن تقديم هذا الفرق بيانياً كما هو مبين في الشكل رقم (٦,١).

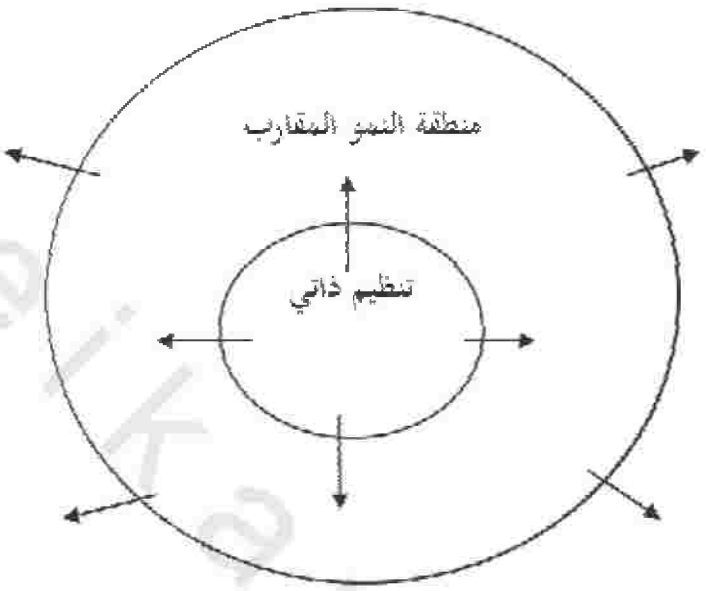

الشكل رقم (٦,١). منطقة النمو المقارب.

وقد كان فيجوتسكي مهتماً بشكل أكبر بمستوى النمو (التطور) الممكن للفرد (أي الطفل) أكثر من اهتمامه بمستوى تطوره الحالي الفعلي. فعلى سبيل المثال يمكن لفردين أن يكونا في نفس المستوى من النمو (التطور) الفعلي كما تعكسه نتائج الاختبار غير أنهما قد يُظهران مستويي نمو مُمكنين كما تعكسه قدراتهما المختلفة على حل المشكلة نفسها بوجود درجة مختلفة من المساعدة المقدمة من أحد البالغين. وقد أنتقد فيجوتسكي الممارسات الشائعة في حقلي التعليم والتقييم التي تركز بشكل أساسي على مستوى نمو الطفل الفعلي مع إعطاء القليل من الانتباه لمستوى نموه الممكن. وقد أطلق فيجوتسكي على مستوى النمو الممكن "براعم" أو "زهرات" النمو عوضاً عن "فواكه" النمو (المصدر السابق). وتحتاج هذه "البراعم" إلى الزراعة والتغذية في منطقة النمو المقارب.

ويرى فيجوتسكي "أن إحدى سمات التعلم الأساسي هي أنه يُوجِد منطقة النمو المقارب ؛ أي أن التعلم يوقظ مجموعة من عمليات النمو الداخلية القادرة على العمل فقط في حال تفاعل الطفل مع الناس داخل بيئته وتعاون مع زملائه. وحالما يتم تذويت هذه العمليات، فإنها تصبح جزءاً من إنجاز النمو المستقل لدى هذا الطفل". ويستمر قائلاً "إن التعلم جانب أساسي وشامل من عملية تطوير الوظائف النفسية المنظمة ثقافياً ذات الطابع الإنساني" (١٩٧٨ : ٩٠).

وتلخيصاً لما سبق، تنشأ جميع الوظائف العقلية في سياق نشاط اجتماعي على المستوى المُجتمعي. ويتم نقل المستوى المُجتمعي إلى المستوى الفردي الداخلي عبر عملية تذويت تدريجية وحيوية لأنماط الأنشطة الاجتماعية التي يصادفها الشخص طوال حياته. وعملية تذويت هذه السلوكيات الإنسانية الناشئة اجتماعياً أمر ممكن بسبب الوظيفة التوسيطية لأنظمة الإشارة. وعلى عكس ما يراه أصحاب الاتجاه المعرفي، يصر فيجوتسكي على أن العوامل الثقافية - الاجتماعية هي اللاعب الرئيس في تطور الوظائف الإنسانية الأعلى رتبة، وعلى الرغم من اعترافه بأهمية الضوابط الأحيائية في التطور العقلي الإنساني فإنه ينكر لعب العقل البشري الدور الرئيس في التطور العقلي ؛ فتطور الوظائف العقلية الإنسانية الأعلى رتبة مثل الانتباه الإرادي، والذاكرة المنطقية، والتفكير المنطقي، والتعلم من وجهة نظر فيجوتسكي لا تمثل ظهور القدرات العقلية الفطرية بل تمثل تغير وتحول هذه القدرات وهو تغير تقدح زناده بيئة الطفل الثقافية - الاجتماعية . وتقوم الإشارات التوسيطية الناشئة بشكل ثقافي اجتماعي مثل الرموز الرياضية، وفوق ذلك كله، اللغة بإحداث عملية التغير والتحول هذه. وبحسب النظرية الثقافية - الاجتماعية، فإن دراسة التطور العقلي الإنساني ما هي إلا دراسة للكيفية التي يتم من خلالها تذويت وسائل

التوسيط ذات الطبيعة الرمزية والثقافية - الاجتماعية من قبل الفرد. وتنتج عملية تذويت وسائل التوسيط من التفاعل الحواري ما بين الأطفال وأعضاء عوالمهم الثقافية - الاجتماعية الآخرين كالآباء والمدرسين والمديرين والأصدقاء. وهذا يقودنا إلى المبدأ الثالث لنظرية فيجوتسكي الثقافية - الاجتماعية وهو دور الرموز اللغوية (أنظمة الإشارة) وتحديداً اللغة، في الوظائف العقلية الإنسانية الأعلى رتبة.

دور اللغة التوسيطي في تطور الوظائف العقلية الإنسانية الأعلى رتبة

يتمثل التصور النظري الأساسي لفيجوتسكي في أن اللغة، بالإضافة إلى قيامها بالدور التواصلي، تعمل كوسيلة تنظيم للأنشطة العقلية. وبحسب فيجوتسكي، فإن اللغة إضافة إلى تنظيمها وتسهيلها لمعالجة الطفل للأجسام، تقوم بتنظيم وتسهيل معالجة الطفل لسلوكه. والوظيفة الأساسية للكلام هي في لعب دور البينية بين مستويين اثنين: المُجتمعي (بين الناس) والداخلي الفردي (داخل الفرد نفسه). وتتبدى وظيفة الكلام التنظيمية لأداء الوظائف العقلية الخاصة في بروز الخطاب الذاتي (الخاص).

عند سن السابعة يصبح الطفل قادراً على التفريق بين وظيفتين اثنتين للكلام هما الكلام الذاتي، والكلام المُوجه للآخرين؛ ونشوء ما يسمى بالكلام الذاتي يدل على بداية التحول من المستوى المُجتمعي (بين الناس) إلى الداخلي الفردي (داخل الفرد نفسه). وحالما تكتمل عملية التحول أو التغير هذه يصبح الكلام الذاتي *كلاماً داخلياً*. "يمثل الكلام الذاتي مرحلة نمو (تطور) تسبق الكلام الداخلي فكلاهما يحقق الأهداف العقلية وتراكيبهما متشابهة..... وأحدهما يتحول إلى الآخر" (فيجوتسكي ١٩٨٦ : ٢٢٦) (Vygotsky, 1986, 226).

ويظهر الكلام الذاتي عندما تصادف الطفل مهمة تتعدى مستوى نموه الحالي ؛ وفي مثل هذه الحالات يطور الطفل طريقة سلوك تتمثل في الكلام الذاتي تعمل ، إضافة إلى طلبه المساعدة من أحد البالغين ، على إرشاده أثناء أي نشاط لحل المشاكل التي تتعدى مستوى نموه الفعلي الحالي.

ويتشابه الكلام الذاتي مع أنماط السلوك الكلامي التي سبق أن تعرض لها الطفل على المستوى المُجتمعي (بين الناس) غير أنها تفتقر إلى جميع السمات النحوية للكلام الاجتماعي. فقد ينطق الطفل بكلمة "أحمر" أثناء بحثه عن قطعة حمراء لإكمال أحجية ما ، وهكذا فإن كلمة "أحمر" تمثل الجملة التالية برمتها "إنني أبحث عن قطعة حمراء". وظهور الكلام الذاتي له أهميته لأنه يكشف بعض المعلومات عن تركيب الوظائف العقلية الإنسانية الأعلى رتبة. وهو يقدم تفسيراً لكيفية قيام التفاعل على المستوى الخارجي جنباً إلى جنب مع قدرة الطفل البيولوجية على تكوين مصدر تطور الوظائف العقلية الأعلى رتبة.

وعلى العكس من بياجيه ، فإن فيجوتسكي لا يقبل بالمفهوم القائل بأن كلام الطفل الذاتي يختفي بكل بساطة مع نموه العقلي ، إذ إنه يرى بأن الكلام الذاتي يتحول إلى "الداخل" ويصبح تفكيراً لفظياً – كلاماً داخلياً– وتحادثاً صامتاً غير مسموع في عقل الفرد.

ويمكن النظر إلى الكلام الذاتي على أنه عربة تحول من المستوى المُجتمعي (بين الناس) إلى الداخلي الفردي (داخل الفرد نفسه) ؛ وحالما ينتهي التحول ، يتخذ الكلام الذاتي (الخاص) شكل الكلام الداخلي " الكلام المُعدّ للذات" (فيجوتسكي ، ١٩٨٦ ، ٢٢٥) (Vygotsk's, 1986, 225) والذي لا يمكن ملاحظته بشرياً. وهكذا فإن الكلام الذاتي يقدم لنا معلومات قيّمة فيما يخص طبيعة وتركيب

الأفكار اللفظية والتي يُطلِق عليها فيجوتسكي مصطلح " الكلام من دون كلمات" ؛ ونظراً لتشابه تراكيبهما وتحول كل منهما إلى الآخر، فإن الكلام الذاتي يزودنا "بمفتاح دراسة الكلام الداخلي" (٢٢٦).

وبهدف اكتشاف الخصائص الأساسية للكلام الذاتي يتعين على الفرد ملاحظة الأنماط الكلامية على المستوى الاجتماعي ؛ ومن أجل فهم تركيب الكلام الداخلي يحتاج الفرد إلى التحول صوب الكلام الذاتي. ولذلك فإن فيجوتسكي يربط بشكل قوي بين الكلام الداخلي للشخص البالغ وكلام الطفل الذاتي. ويقدم إجابة للسؤال الخاص بسبب تحول الكلام إلى الداخل، فالكلام يتحول إلى الداخل "لأن وظيفته تتغير" ((فيجوتسكي، ١٩٨٦ ، ٨٦) (Vygotsk's, 1986, 86). ويتم ربط الوظائف المختلفة للكلام مع أشكال الكلام المختلفة الخارجية والذاتية والداخلية. ولذلك فإن خط سير التقدم يبدأ من الكلام الخارجي إلى الكلام الذاتي انتهاءً بالكلام الداخلي.

وبالرغم من ترابط جميع صيغ الكلام هذه فإنها ليست واحدة، ويحذّرنا فيجوتسكي من المساواة المبتسرة للكلام الداخلي مع الكلام الخارجي، كلام التواصل فيما بين الناس، ويتحدث عن "كلام داخلي لا يعود بشكل مسبق إلى الكلام الخارجي ولا هو إعادة له في الذاكرة لكنه بطريقة ما عكس الكلام الخارجي. والأخير هو تحويل الأفكار إلى كلمات وتحويلها إلى مادة وتجسيمها. أما في حالة الكلام الداخلي فيتم استيفاء العملية بحيث يكون اتجاهها من الخارج إلى الداخل. ويتم تحويل الكلام العلني إلى أفكار" (١٩٨٦ : ٢٢٦).

إن الفرق بين العمليات الداخلية وعمليات الكلام الخارجي الذي تم توصيفه في النص السابق لفيجوتسكي له أهميته الكبيرة إذ إن فيجوتسكي لا

يشجعنا على المساواة بين هذين النوعين من العمليات لأنه في حال القيام بذلك ستكون نظريته الثقافية - الاجتماعية مشابهة للنظرية السلوكية القائمة على المحفزات والاستجابات ويتعين التعامل مع عملية دمج الكلام في الأفكار لا على أنها عملية الامتصاص الفردية السلبية للمحفزات الخارجية بل على أنها العملية الفردية الفعالة لتحويل الكلام الخارجي إلى أفكار. والتعرض إلى الكلام الخارجي يحفز وينشط العملية الحاضرة دوماً لتحويل الكلام إلى أفكار وهي العملية التي يلعب فيها الفرد بصفته فاعلاً نشطاً دوراً أساسياً. كما أنه يتعين على الفرد أن يتذكر أن "الفكرة اللفظية عموماً لا تحتوي على جميع صيغ التفكير أو جميع أشكال الكلام. فهناك منطقة أفكار ضخمة لا ترتبط مباشرة بالكلام" (فيجوتسكي، ١٩٨٦، ٨٨) (Vygotsk's, 1986, 88).

ويتطلب النمو المعرفي أن يبتعد الطفل عن الاعتماد على الآخرين ليتجه صوب الاعتماد على كلامه الداخلي حيث يحدث التحكم بأداء العقل لوظائفه. ومرحلة ابتداء بحث الطفل عن التنظيم الذاتي والاستقلال العقلي يميزها ظهور الكلام الذاتي — الذي يمثل الصيغة المنطوقة للكلام الداخلي— حيث تظهر المحاولة الأولى للتنظيم الذاتي. ويزود الكلامُ الخاص الطفلَ بالأدوات ما فوق المعرفية مثل التخطيط والإرشاد والمراقبة لأي نشاط يتعدى مستوى نمو الطفل المعرفي الحالي. وهو يمثل محاولة الطفل للاحتفاظ بحريته المعرفية من خلال قيامه بنفسه بأداء هذه المهمة.

ولكن ما هي الخصائص الرئيسة للكلام الداخلي والكلام الذاتي المتجه للداخل؟

في الكلام الداخلي يتم تقليل دور التراكيب والأصوات اللغوية إلى أقصى درجة ممكنة إذ يتم حذف الفاعل على مستوى الجملة وكذلك أية تعابير تركيبية مرتبطة به. ويمكن تفسير عملية تقليل الدور هذه عبر حقيقة أن من قام بالفعل والذي

يتم التعبير عنه من خلال الفاعل في جملة ما يكون معروفا بشكل جيد بالنسبة للمتكلم ولذلك فإنه ما من حاجة للإشارة إليه حسبما يرى المتكلم. ويرى فيجوتسكي أن الكلام الداخلي يعرض "اختصارات" عند كل من المستويين التركيبي والدلالي. وفيما نتوقع سماع كلمة "لا" مفردة بديلاً للجملة الكاملة التالية: "لا، أنا لا أرغب في الذهاب إلى دار عرض الأفلام"، على سبيل المثال، فإنه بالإمكان ملاحظة مفهوم تركيبي مشابه لذلك في الكلام الداخلي. ويُطلِق فيجوتسكي على هذا الاختصار لتركيب الكلام الداخلي وصرفه "عملية الإسناد" نتيجة اعتمادها الكبير على "مُسند ما" مع حذف فاعل الجملة.

وبحسب ويرتش (Wertsch 1991, 41)، ينبغي عدم ربط عملية الإسناد هذه مع مُسند الجملة بل مع المسند النفسي. ففي عملية الإسناد النفسية يتم حذف العناصر التي يتعرف إليها المتكلم فيما تبقى العناصر التي لم يتم التعرف إليها. وكما أشرنا من قبل فإنه نتيجة لطبيعة الكلام الداخلي المختصرة، يصبح هذا الكلام مفككاً وغير قابل للفهم من قبل العالم الخارجي؛ فمن يلاحظ هذا الكلام من الخارج ليس بإمكانه أن يفهمه من دون مرجع معين لوضع بعينه قد لا يكون له أي مغزى إلا للمتكلم فقط.

كما يتميز الكلام الداخلي بالطبيعة المختصرة للأصوات أي أن واحدة من الخصائص الأساسية للكلام الداخلي تتمثل في غياب خاصية تحويله إلى صوت جهوري إذ ليس هناك من حاجة لنطق الكلمات كاملة في عقل المتكلم فهي مفهومة من قبل المتكلم بشكل كامل. يقول فيجوتسكي بهذا الخصوص: "يعمل الكلام الداخلي مع الدلالات لا الأصوات اللغوية"(فيجوتسكي، ١٩٨٦، ٢٤٤) (Vygotsk's, 1986, 244). وتمثل العلاقة بين الدلالات والأصوات اللغوية في الكلام

الداخلي مصدر جدل كبير (يوشاكوفا، ١٩٩٨) (Ushakova, 1998) فالتفاعل الصوتي واللاصوتي وكذلك تخزين المعلومات الصوتية اللغوية لا يزال محط جدل مستمر.

ويعتبر فيجوتسكي أن الكلام الداخلي يمثل العربة الرئيسة للوظائف العقلية الأعلى رتبة مثل التخطيط والمراقبة لنشاط ما. كما أنه يعتبر هذا الخطاب "مستوىً مميزاً للتفكير اللفظي" (١٩٨٦، ٢٤٨) وكما يشير المصطلح "التفكير اللفظي"، فإن المكونين الرئيسين للكلام الداخلي هما اللغة (الكلمات) والأفكار. وهو يقول في هذا الصدد "فيما تتجسد الفكرة ضمن الكلام الخارجي في الكلمات فإن الكلمات تموت في الكلام الداخلي أثناء توليدها للفكر. إن الكلام الداخلي وبنسبة كبيرة ما هو إلا تفكير في المعاني الصافية، وهو شيء حيوي متحول الاتجاهات غير ثابت متأرجح بين الكلمة والفكرة اللتين تتميزان باختلاف درجة ثباتهما وكونهما مكونين واضحين للتفكير اللفظي" (٢٤٩).

وكما يدل هذا الاقتباس، تلعب الكلمات دوراً أساسياً لا غنى عنه ضمن الكلام الداخلي. وأي كلمة تحمل اثنين من المعاني حسبما يرى فيجوتسكي: أحدهما ثابت "راسخ" عبر مختلف السياقات كما هو الحال مع أي كلمة في القاموس والآخر "حسي" وهو مرتبط بشكل أكبر مع ارتباطاته النفسية المتعددة التي يتم اكتسابها خلال عملية تذويت تلك الكلمات والألفاظ والأصوات المتعددة التي يتعرض لها الفرد أثناء الكثير من السياقات الثقافية – الاجتماعية طوال حياته أكثر من ارتباطها بمعناها الخارجي الذي يمكن التعرف عليه. وهذه السمة الأخيرة الخاصة بالكلام الداخلي "تتمثل في تفوق الجانب الحسي للكلمة على معنى الكلمة نفسها" (فيجوتسكي، ١٩٨٦، ٢٤٤) (Vygotsk's, 1986, 244) ويرتبط مفهوم "الحسي

بشكل كبير مع وحدة تحليل التواصل اللغوي التي يستخدمها فيجوتسكي والمتمثلة في "الكلمة".

ويُميّز فيجوتسكي كما أشرنا من قبل بين المعنى والحسي حيث إن للمعنى دوراً إشارياً إحالياً مع ثباته واستقراره عبر مختلف السياقات. ومن ذلك على سبيل المثال معنى كلمة "أخضر" الذي يدل على لون ما. أما الحسي فقد يدل على اللون أو على اسم حزب سياسي (حزب الخُضر) أو على سمة شخصية (كون الشخص ساذج) أو على شيء آخر إذ ليس هناك توافق تام بين المعنى والحسي لهذه الكلمة. ويتكون الكلام الداخلي من الحسي الذي يتميز بدرجة عالية من التجريد وعدم التأثر بالسياق على عكس المعنى. هنا يقول فيجوتسكي: "الجانب الحسي لكلمة ما هو مجموع كل الأحداث النفسية التي تثيرها الكلمة في وعينا وهذا يتمتع بكونه كُلاً حيوياً معقداً غير ثابت ذي مناطق استقرار غير متساوية. ويمثل المعنى واحدة من مناطق الحسي تلك الأكثر استقراراً ودقة. وتكتسب الكلمة جانبها الحسي من السياق الذي تظهر فيه وهي تغير جانبها الحسي مع اختلاف السياقات" (١٩٨٤: ٤٥-٢٤٤).

إن إحدى السمات الدلالية الأساسية الأخرى للكلام الداخلي هي كلام يُسمى الرّص ويستمد هذا المصطلح اسمه من عملية تظهر في اللغات المركبة والتي يتكون فيها معنى إحدى الكلمات من خلال المزج بين كلمات متعددة لتعطينا كلمة واحدة. في هذا الصدد يقول فيجوتسكي: "عندما يتم مزج عدة كلمات في كلمة واحدة، لا تكتفي الكلمة الجديدة بالتعبير عن فكرة أكثر تعقيداً بل إنها تدل على جميع الأجزاء المتباعدة التي تحتويها تلك الفكرة" (١٩٨٦-٤٧). ويمكن ملاحظة هذا المفهوم ضمن الكلام الداخلي حيث يتم إيجاد جوانب حسية جديدة من خلال المزج بين جوانب حسية متعددة لإيجاد حسي جديد.

وهكذا فإن "تدفق الجوانب الحسية" (المصدر السابق)، يمثل سمة أخرى للكلام الداخلي حيث "الجوانب الحسية لكلمات مختلفة تتدفق واحدة تلو الأخرى – كل واحدة منها تؤثر في الأخرى بالمعنى الحرفي لكلمة "تؤثر"– بحيث تحتوي الجوانب الحسية الجديدة على الجوانب الحسية القديمة مع تأثير القديمة في الجديدة" (٤٧-٢٤٦). وكما هو الحال في اللغات المتميزة بالرّص، تندمج الجوانب الحسية للكلمة مع بعضها بعضاً مع قيام الجانب الحسي الرئيس بدور نقطة المرجع مؤدية إلى ظهور ارتباطات (جوانب حسية) أخرى يمكن للمتكلم أن يتعرف عليها بسهولة. ويفسر فيجوتسكي هذه النقطة عبر استخدام تشبيه بعنوان حمل مغزى الأعمال الأدبية الكاملة، فالعنوان "هاملیت" الذي يشير إلى إحدى أعمال شيكسبير يحمل المعنى الدلالي الأقصى وهو أيضاً يُمثل نقطة الانطلاق للأحاسيس الأخرى المرتبطة بهذه الكلمة والتي ربما قام الفرد بتذويتها خلال سنوات حياته. وهي قد تثير ذكرى المسرحية التي شاهدها الفرد في مدينة لندن أو الامتحان الخاص بشكسبير الذي رسب فيه أثناء دراسته أو الدور الذي لعبه في مسرحية "هاملیت" أثناء دراسته للثانوية العامة؛ وهكذا فإن العنوان يقدم تفسيراً لإحدى خصائص الكلام الداخلي – الرّص – حيث يتكون معنى الكلمة الواحدة من عدة أحاسيس مترابطة ومندمجة قابلة للفهم فقط من قبل المتكلم.

وقد تأثر فيجوتسكي أثناء تطويره للأفكار المرتبطة بالتواصل اللغوي بالمدرسة الشكلية الروسية[1] (ويرتش) وهي المدرسة التي كانت لها السيطرة في مجالي اللغويات والنقد الأدبي أثناء فترة حياته بما في ذلك عمل جاكوبسون وكذلك عمل ياكوبينسكي على وجه الخصوص والذي مّيز بين دورين متنوعين للكلام أحدهما

(١) تحليل الأسلوب في النقد الأدبي دون الرجوع إلى المحتوى الاجتماعي أو التاريخي.

يلعب دوره في التواصل الاجتماعي ما بين الأفراد والآخر ذي درجة أكبر من التجريد. ويتميز الدور الأول للكلام بأنه أكثر دلالة (أو إحالي) إضافة إلى سياقيته (تأثره بالسياق) فيما الآخر أكثر رمزية ولا يتأثر بالسياق. وقام فيجوتسكي بتطبيق هذه الأفكار على تحليله التواصلي اللغوي للوظائف العقلية الأعلى رتبة.

ويمثل عدم تأثر معنى الكلمة بالسياق – أي تطور الأحاسيس – من وجهة نظر فيجوتسكي شرطاً ضرورياً للانتقال من المستوى الخارجي إلى المستوى الداخلي. ويتم اكتساب خاصية عدم التأثر بالسياق من خلال تحرك تدريجي عبر مختلف المراحل، ففي المرحلة الأولى التي تتميز بأنها غير مرتبة، يُصنِّف الطفل الأشياء بشكل شخصي فكلمة "كلب" على سبيل المثال قد تدل على أي جسم ذي أربعة أرجل. وفي المرحلة الثانية يصنف الطفل الأجسام بناءً على التصنيفات الموضوعية الموجودة بشكل طبيعي في تلك الأجسام، إذ يستطيع الطفل على سبيل المثال تصنيف الأجسام بناءً على اللون. وتمثّل المرحلة التالية – مرحلة المفاهيم الزائفة – عملية الانتقال إلى مرحلة المفاهيم، وتتميز هذه المرحلة بقدرة الطفل على عرض بعض سمات التفكير على شكل مفاهيم ولكن بشكل غير ثابت. فيما تظهر المفاهيم الحقيقية في المرحلة الرابعة، فتطور الإحساس بالكلمات يقوم بالدور التوسيطي لقدرة الطفل على تطوير وظائف عقلية أعلى رتبة لا يمكن تطويرها إلا في أوضاع تعليمية فقط، حيث بالإمكان إيجاد وتشجيع التعلم في منطقة النمو المقارب.

ويرى فيجوتسكي أن التعلم والتطور شيئان مختلفان ونجد أن أفكاره في حالة تضاد مع أفكار بياجيه فيما يخص العلاقة بين التعلم والتطور إذ كان لفيجوتسكي رأيه الثوري في أن العوامل الاجتماعية يمكنها أن تتفوق على العوامل الطبيعية أو الأحيائية لتطور الوعي العقلي الأعلى رتبة. فتشكيل تطور الطفل الناتج لا يتم من

خلال رمز معرفي مبرمج كما قد يقترح علم النفس المعرفي لدى بياجيه بل من خلال أفراد المجتمع الآخرين الذين يتعامل معهم الطفل حيث تُؤثر لغة هذا المجتمع في النمو والتطور العقلي الأعلى لدى الطفل.

والتفكير من وجهة نظر فيجوتسكي ما هو إلا كلام داخلي وبما أن جذور هذا الكلام الداخلي يمكن العثور عليها على المستوى الاجتماعي في الكلام الاجتماعي فإن التفكير بشكل أساسي عبارة عن نشاط إنساني يلعب فيه المتعلم دوراً مهماً. ويهيئ التعلم وخصوصاً ذلك النوع من التعلم الذي يتم في أوساط تربوية فرصة فريدة من نوعها للنمو وتطور معاني معزولة من السياق للكلمات لا غنى عنها في نمو وتطور الكلام الداخلي وبالتالي المستويات الأعلى من التفكير المنطقي.

إن نظرية فيجوتسكي الخاصة بالتواصل اللغوي – أي نظريته الخاصة بالوظائف التوسيطية للأنظمة الإشارية– ترسم بشكل واضح خطاً فاصلاً وأساسياً فيما بين الأشكال الثقافية والتواصلية للسلوك ، وفيما بين الأفراد على المستوى المُجتمعي والعمليات النفسية داخل الفرد (أي على المستوى الفردي)، وفي هذا الصدد يذكر فيجوتسكي ما يلي: " تتطلب عملية تذويت الأشكال الثقافية للسلوك إعادة تركيب النشاط النفسي على أساس العمليات الإشارية " (١٩٧٨ : ٥٧). ونحن نشارك في العديد من الأنشطة الاجتماعية التي يتم توسيطها من خلال جميع أنواع الإشارات بما فيها الإشارات اللغوية. وبمساعدة من هذه الوسائط التوسيطية المتمثلة في "العمليات الإشارية" يتم جعل التفاعلات الخارجية التي تجري في مختلف السياقات الاجتماعية مناسبة لتتحول إلى كلام داخلي –كلام موجه للنفس– ذي تفكير لفظي.

لاحظ هنا أن الإشارات اللغوية والعمليات العقلية في نظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية لا تسبق تطبيقها في السياقات الاجتماعية الواقعية فهي نتاج

مشاركة الفرد في الأنشطة الاجتماعية. ويمثل التفاعل الاجتماعي متطلباً أساسياً لنشوء وظهور أشكال أعلى رتبة من الوعي؛ وبحسب النظرية الثقافية - الاجتماعية ينبغي عدم التعامل مع الإشارات اللغوية على أنها عشوائية لأنه يمكن تعقب أصلها إلى العديد من التفاعلات الاجتماعية. وحالما يتم تذويت هذه العلامات اللغوية فإنها تصبح أدوات تفكير وإمعان نظر تؤثر بدورها على تطبيق هذه العلامات خارجياً. إن نظرية فيجوتسكي تتمحور حول التفاعل الجدلي فيما بين المستويات الخارجية (الاجتماعية) والداخلية (العقلية) بحيث يغير كل واحد منهما الآخر. هذه العلاقة الجدلية ترفض التقليد الثنائي للعلوم الصلدة فهي ترفض الفصل بين العقل البشري والجسد البشري، والعمليات العقلية والعمليات الاجتماعية، والفرد والمجتمع، واللغة والسياق.

وفي النهاية فإن نظرية فيجوتسكي تشير باتجاه الطبيعة متعددة المستويات للكلام الداخلي وعلاقته بالكلام الخارجي. وتنشأ الارتباطات فيما بين الكلام والتفكير على مستوى الكلام المُجتمعي حيث يتم توظيف الكلام للتواصل بين الأشخاص. ومن خلال القوة التوسيطية لأنظمة إشارات التواصل اللغوي حيث تلعب اللغة الدور الأهم، يتم تذويت تلك الأنماط والسلوكيات المُلاحظة على المستوى الاجتماعي.

نظرية النشاط

لا تزال العلاقة فيما بين النظرية الثقافية - الاجتماعية ونظرية النشاط موضع جدل ونقاش؛ وبشكل عام، فإن علماء النفس الروس يرون وجود فروق بين هاتين النظريتين أكثر مما يراه علماء النفس الغربيون. وعلى عكس نظرائهم الروس يميل علماء النفس الغربيون إلى دمج هاتين النظريتين في إطار واحد.

وإذا ما كنا نرغب في فهم الرابط ما بين النظرية الثقافية – الاجتماعية ونظرية النشاط فإننا بحاجة إلى بعض الخلفية التاريخية (ويرتش). وكما أشرنا من قبل في ذلك الجزء الخاص بحياة فيجوتسكي، فإن ليونتوف كان من أقرب طلاب فيجوتسكي ومساعديه حيث عمل معه في معهد علم النفس في موسكو، كما أنه كانت له بعض المساهمات المهمة في نظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية. وقد انتقل ليونتوف في العام ١٩٣٠ إلى خاركوف في أوكرانيا حيث شرع في تأسيس مدرسة جديدة في علم النفس هي نظرية النشاط.

ويشير أولئك الذين يرون أن النظرية الثقافية – الاجتماعية ونظرية النشاط تمثلان إطاراً واحداً إلى تلك الحقيقة المتمثلة في اعتراف ليونتوف في مناسبات عديدة أن هاتين النظريتين متقاربتان بشكل كبير، غير أنه وعلى الرغم من تأكيده هذا، فإنه لا يزال هناك فرق أساسي فيما بينهما؛ فالنظرية الثقافية – الاجتماعية تتمحور بشكل أساسي حول الدور التوسيطي لأنظمة الإشارة أو دور اللغة والمجتمع في تطور الوعي الأعلى رتبة فيما تركز نظرية النشاط بشكل أساسي على أدوات وأجسام العمل لتطوير الوعي الإنساني. ويمكن تفسير هذا الاختلاف الواضح كما يقترح زينشينكو (Zinchenko, 1995) عبر مختلف أنواع الواقع السياسية المتنوعة التي كان يتعين على كل من هذين العالمين العمل فيها.

هنا يجدر التذكير بأنه تم منع أعمال فيجوتسكي عقب وفاته من قبل نظام ستالين نتيجة اختلافها عن الفلسفة الماركسية الرسمية، ولربما كان خوف ليونتوف وزملاؤه من التعذيب هو السبب الذي جعلهم يُخضعون اهتماماتهم البحثية لمتطلبات النظام السوفيتي فقد قلّلوا من دور تلك القوى الأكثر رمزية ومثالية (أي دور اللغة والثقافة) في أداء العقل البشري لوظائفه وركزوا بدلاً من ذلك على

الأدوات والقوى الأكثر مادية. هذه التبدلات في بؤرة أبحاثهم العملية على المستوى السطحي على الأقل، أعطت الانطباع بأن هذه الأبحاث أكثر اتساقاً وتناغماً مع التوجه السياسي الرسمي الذي كان ينادي بالتخلص من الملكية الخاصة وإيجاد مجتمع عمالي مادي علماني واحد.

وكما أشرنا من قبل، هناك ميل لدمج هاتين النظرتين في إطار واحد. فالمؤلف ويرتش في مقدمة كتابه "مفهوم النشاط في علم النفس السوفييتي" The Concept of Activity in Soviet Psychology يقدم وصفاً لنظرية النشاط فيما يخص العديد من الملامح التي يتطابق بعض منها، كالطريقة الجينية والتذويت والكلام الذاتي، مع أفكار فيجوتسكي. أما الملمح الذي لا يظهر في النظرية الثقافية - الاجتماعية رغم ظهوره في نظرية النشاط فهو تركيب النشاط نفسه (ويرتش، ١٩٨١) (Wertsh, 1981).

وفي نظرية النشاط، يتكون تركيب ونشاط ما من ثلاثة مستويات: الدوافع، والتصرفات، والعمليات. ولا يتم فهم النشاط على أنه نشاط بهدف القيام بشيء ما بل على أنه فعل شيء ما يكون الدافع من ورائه إما الاحتياجات الأحيائية وإما الثقافية. ويمكن استخدام الحاجة إلى الطعام أو الملجأ كمثال على فعل الشيء نتيجة الحاجة الأحيائية فيما يمكن استخدام حاجة الشخص لأن يكون ناجحاً في مجاله المهني كمثال على فعل الشيء نتيجة الحاجة الثقافية. ويمكن تحليل النشاط على هذه المستويات الثلاثة بشكل منفصل لأنه يتم توظيف وحدة تحليل مختلفة في كل مستوى متمثلة في كل من الدافع والهدف والعملية.

ولا يمكن تحقيق الدوافع إلا في حالة القيام بتصرفات معينة، حيث يتعين أن تكون هذه التصرفات محددة الأهداف إضافة إلى القيام بهذه التصرفات عبر استخدام عمليات بعينها (أو تحت ظروف محددة) فلو استخدمنا المثال السابق، فقد يحتاج الفرد

إلى القيام بأفعال معينة كالتسجيل في مواد معينة، أو حضور ورش عمل كي يكون ناجحاً. هذه العمليات محددة الأهداف ينبغي القيام بها تحت ظروف معينة ومن ذلك على سبيل المثال أنه يتعين على الشخص دراسة مواد بعينها كشرط أساسي للتسجيل في مادة برمجة حاسب متقدمة.

إن الإلمام بتركيب نشاط ما يعتبر أمراً مهماً لأن ما يصنع الفرق بين نشاط وآخر لا يتمثل في تحقيق وأداء هذا النشاط بل في دوافعه أي أنه ربما تم أداء نشاطين اثنين بشكل مختلف، غير أنه نتيجة لتشابه الدوافع لهذين النشاطين، يتم التعامل معهما على أنهما متماثلان (أي أنهما يمثلان النشاط نفسه) أو ربما يكون النشاطان متماثلين على مستوى التصرف غير أنه نتيجة ارتباطهما بدوافع مختلفة، يتم التعامل معهما على أنهما مختلفان عن بعضهما. فلو أن شخصين على سبيل المثال يشتركان في تجربة تهدف إلى حل أحجية ما ينفذان التعليمات بطريقة متشابهة وكانت نتيجة تصرفاتهما متشابهة (حل الأحجية) غير أن دوافع الشخصين لحل الأحجية كانت مختلفة - فأحدهما على سبيل المثال يشترك فيها بدافع الفضول فيما يشارك الآخر بها لإرضاء الباحث أو بهدف الحصول على درجة أفضل- فإن هذين الشخصين يشاركان في نشاطين اثنين مختلفين.

وبهدف التلخيص، يمكن القول أنه تم تطوير نظرية النشاط من قبل ليونتوف الذي كان واحداً من طلاب وأتباع فيجوتسكي. وعلى الرغم من استمرار وجود بعض الاختلاف فيما يخص العلاقة ما بين هاتين النظرتين، يتم التعامل مع نظرية النشاط على أنها جزء من النظرية الثقافية - الاجتماعية ويرتش (Wertsch, 1981). ويتم وصف نظرية النشاط من خلال الملامح التالية: تركيب نشاط ما (الدوافع، التصرفات أو الأهداف والعمليات)، والتوسيط (يتم استخدام الأدوات وأنظمة

الإشارة لتوسيط النشاط)، والطريقة (يتم دراسة النشاط عبر توظيف طريقة جينية)، والتفاعل (يتم تطوير النشاط في سياق التفاعلات الاجتماعية)، والتذويت (يتم تطوير النشاط من خلال عملية تذويت الأنماط الملاحظة مبدئياً على المستوى المُجتمعي).

إن وفاة فيجوتسكي المبكرة، كما يشير ويرتش (١٩٩٠) قد منعته من الاستمرار في تحقيق رغبته المتمثلة في محاولة معرفة آثار مختلف السياقات الاجتماعية والمؤسسية على التطور العقلي البشري. وقد كان فيجوتسكي مهتماً بوجه خاص في أواخر حياته بدراسة ذلك الرابط بين خصائص الخطاب في السياقات الأكاديمية وأنواع معينة من التطور العقلي التي يتسبب فيها التعرض لمثل هذه البيئات.

إن "أوجه القصور" النسبية في نظرية فيجوتسكي يمكن معالجتها من خلال الاستعانة ببعض أفكار ميخائيل باختين الذي كان معاصراً له. ويتضمن الفصل القادم نبذة بالمبادئ الأساسية لنظرية باختين الأدبية المعروفة بتصيير التغاير اللغوي حوارياً.